

مفهوم التلقي في التراث العربي

الدكتور: محمد ملياني
جامعة وهران - الجزائر

ملخص:

لقد جاء اهتمام أسلافنا بجماليات التلقي مبنوثة في جملة أحكامهم بقضايا النص عبر حقبة زمنية مختلفة، من أمثال الجاحظ (ت255هـ) وابن قتيبة (ت276هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذين يشكلون تطورا لحركة الفكر النقدي العربي بشكل عام، ويمثلون طفرة هائلة فيما يتعلق بجماليات التلقي، وبخاصة في رحاب تلقي القرآن الكريم والشعر العربي، اللذين أوجدا نوعين من التلقي هما التلقي الشفاهي والقراءة.

لم يغفل الدارسون العرب - قديما وحديثا - موقف المتلقي وذلك التفاعل الذي بينه وبين المبدع، وعلاقتها الوثيقة التي تسهم في إضفاء شرعية فهم النص وتحديد فضائه. وأصفي ما نقدمه شاهدا على ذلك هو أن علم النحو العربي قد أقيم صرحه على دراسة دور المتلقي " فقد استنبطوا قواعدهم باستقراء الأداء الذي يتلقاه المتلقي؛"¹ لأن هذا الأخير يعد عنصرا رئيسا في فهم ما يُنشأ؛ ولأن النص موجّه إليه كي يفهمه ويتبين دلالاته المختلفة، ولذا فليحقق المنتج هذه الغاية عليه أن يراعي الإحساس اللغوي عند المتلقي المتفاعل مع أجواء النص الفسيحة للإسهام في إنتاج المعنى.

كما يعد المنشئ طرفا هاما وأساسا في عملية إنتاج الكلام، وعنصرا فعالا في تحديد خصائص النص، إذ على عاتقه تقع مهمة إخراجها على سمت كلام العرب من جهة، واستجابته لمقتضيات الوظيفة النصية التي تختص ببناء الحدث اللغوي من جهة أخرى، وذلك باختيار الجمل المناسبة لأساليب اللغة العربية، ولقوانين علومها بكيفية تتسق وتتسجم مع عملية

¹ - نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية: د. مصطفى حميدة، ط.1، سنة1998م، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان -

الاتصال والإبانة والإفهام،² والمبدع كما يراه ر.بارث (R.Barthes) يكتب من لغته التي ورثها عن سالفه ومن أسلوبه، وهو شبكة من الاستحواذ اللفظي ذات سمة خاصة شبه شعورية.³ ويعد المتلقي قطبا آخر من أقطاب العملية التواصلية، فمراعاته ومراعاة مقامه وجلب انتباهه مما يؤثر في تركيب الجمل وحشر مكوناتها وفق ترتيب معين تطلبه أكثر من ضرورة؛ لأنّ عدم مراعاة المتلقي قد يؤدي إلى خلق حالة فيه معاكسة تماما لما كان المتكلم يروم فيه. فالمادة اللغوية التي تصنع الحدث اللساني، تتغير بفعل التركيب القائم على الحذف والذكر والتقديم والتأخير والوصل والفصل، وهذه الكيفيات التعبيرية هي التي تصنع الأدب، وتبرز الفرق بين خطاب وآخر. فالخطاب العادي يطلب متلقيا عاديا والخطاب المنماز يطلب متلقيا متطورا الذي عليه أن يتعقب فراغات النص وفجواته وملتوياته قصد تحقيق المتعة الجمالية التي مصدرها لذة الاكتشاف القائمة أساسا على تفاعل المتلقي مع النص.

ولم يغب هذا الأمر عن ذهن عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) حين قال: "إنّ المعنى إذا أتاك ممثلا فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه. وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر وإبائه أظهر واحتجابه أشد." ⁴ ومغزى كلامه أن المعنى كلما كان بعيدا كانت به النفس أشغف.

وبالرجوع إلى آي القرآن الكريم نجد لفظ التلقي ورد فيها للدلالة على التعليم والتلقين والتوفيق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُوْحَظٌّ عَظِيمٌ﴾⁵ وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾⁶ أي يأخذ بعض عن بعض؛ وأما قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾⁷؛ فمعناه أنّه أخذها عنه.⁸

وينضح لنا في ضوء ما تقدم، أنّ الاستعمال القرآني لمادة التلقي إشارة إلى عملية التفاعل النفسي والذهني مع النص، وتأكيد على مكانة المتلقي ووظيفته العاليتين في تلقي النص القرآني وفهمه للوقوف على أسرار العجيبة، وهذا ما فعله أسلافنا حقيقة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا

² - ينظر أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى ، faculty. Uaeu.ae/rachid

³ - ينظر الخطيئة والتكفير، من النبوية إلى التشريحية: عبد الله الغدامي، ط.1، سنة 1985م، النادي الأدبي الثقافي-جدة ص 12-13.

⁴ - أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص 118.

⁵ - سورة فصلت/35.

⁶ - سورة النور/15.

⁷ - سورة البقرة/37.

⁸ - ينظر لسان العرب: ابن منظور، ج15/256.

يَحْسِبَنَّ الدِّينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ⁹ والتقدير: ولا يحسبن الذين يبخلون البخل [هو] خيرا لهم، ولم يذكر البخل اجتزاء بعلم المخاطب بأنه البخل، لذكره يبخلون¹⁰ بوصفه قرينة لفظية، "ومثل ذلك قول العرب (مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرًّا لَهُ)، يريد كان الكذب شرا له، إلا أنه استغنى بأن المخاطب قد علم أنه الكذب، لقوله كَذَبَ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ"¹¹ ويتضح بأن سيبويه (ت180هـ) وهو رأس النحاة كان يولي أهمية كبيرة للمتلقي في فهمه لكلام العرب ووصفه.

ويؤكد الفراء (ت207هـ) ما ذهب إليه سيبويه أثناء حديثه عن حذف جواب الشرط، وعلله بأن "العرب تفعل هذا في كل موضع يُعرف فيه معنى الجواب"¹²، وهذا يعني أن المعرفة والدراية من الأمور التي ينبغي أن تكون حاضرة لدى المتلقي، مع العلم أن جواب الشرط ركن أساسي في أسلوب الشرط إلا أنه يجيء محذوفا في كلام العرب؛ لأن حذفه أبلغ من ذكره، وهو ما ضبطه النحاة بقواعد توجيه دقيقة لضبط المعنى المقصود بالحذف، ومن هذه القواعد:
- أن يشتمل الكلام على ما يدل على جملة الجواب المحذوفة¹³ لفظا أو تقديرا، وأن لا يصلح جوابا.¹⁴

- وأن يكون فعل الشرط التالي للأداة ماضيا لفظا ومعنى، أو معنى فقط، يضاف إلى ذلك إذا كان مسبوqa ب: "لم".

والنظم في مفهوم عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) معنى مشكّل تشكيلا فنيا يقوم في جوهره على قدر كبير من الصنعة والغرابة والتقديم والتأخير والحذف "سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجودا في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عمد إليه البصر بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما يصنع الصنّع الحاذق حتى يغرب في الصنعة... ويبدع في الصياغة."¹⁵

⁹ - سورة آل عمران/180.

¹⁰ - الكتاب: سيبويه، ج2/391.

¹¹ - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

¹² - معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، ط2، سنة 1980م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1/331-332.

¹³ - مغني اللبيب: ابن هشام، ج2/647.

¹⁴ - ينظر النحو الوافي: عباس حسن، ط6، سنة 1979هـ، دار المعارف - مصر - ج4/341.

¹⁵ - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص324.

وكان يمثل جهد صاحب دلائل الإعجاز اتجاهها ناضجا لفهم معاني النحو؛ إذ كان ينظر للنحو على أنه تحصيل الخبرات المتنوعة بتراكيب وأساليب العربية وليس على أنه قواعد صارمة فحسب، وكان هذا الفهم الواعي للنحو ووظيفته قد ظهر في إشارات سيبويه " وقد فطن كبار النحاة أيضا إلى أن الخبرة بتراكيب العربية هي في الوقت ذاته خبرة بالأغراض التي تعبر عنها اللغة، وبعبارة ثانية أدرك النحاة أن هناك التحاما بين ما يسمى تراكيب وما نسميه باسم المعاني... وظل إحساس النحاة بالاختلاف في إدراك المعاني حافزا يحفزهم إلى التمييز بين التراكيب أو التنوع القائم في بنية اللغة، ظل إحساس النحاة قائما بالعلاقة المتينة بين ما يسمى باسم اللغة وما يسمى الأغراض أو المعاني،¹⁶ ويكمن فضل عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في جمع إشارات كبار النحاة في نظرية محكمة.

وفي ضوء هذا الفهم فإنّ النحو ليس إقامة الحدود بين الصواب والخطأ فحسب، بل هو إبداع، يقوم به المنشئ المتطور العارف بشجاعة العربية القائمة على طرق ترتيب الكلمات في جمل وتواشجها.

وجملة الأمر أنّ المعنى لا يدرك إلا في سياق آياته اللغوية وعلاقته بالمتلقي، أي حين تتضافر المكونات النحوية والمجازية في النص، وترتبط بالمتلقي فيتحقق التأثير الجمالي؛ وأولى هذه المسألة النقد العربي أهمية متزايدة لاسيما الجاحظ (ت255هـ) والجرجاني في حديثهما عن مفهوم اللذة الأدبية وكيفية الوقوف عليها في النص، وفي هذا الشأن قال الجاحظ: "الشيء من غير معدنه أغرب، وكلّما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلّما كان أبعد في الوهم كان أطرف وكلّما كان أطرف كان أعجب وكلّما كان أعجب كان أبعد".¹⁷

وعبّر عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) عن هذا الأثر ووظيفته الجمالية بعدة مصطلحات تشكل جميعها خصائص الأثر الجمالي، وهي: التأثير - القراءة - التأمل - التأويل - بوصفها وظائف المتلقي نحو النص الأدبي ترتبط بتقنيات أسلوبية قوامها التفاعل المتبادل، فالتأثير الذي أوماً إليه صاحب دلائل الإعجاز يكشف عن وعي متقدم بطبيعة النص وخصوصية تلقيه: "لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى، حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبها".¹⁸

¹⁶- النحو والشعر، قراءة في دلائل الإعجاز: مصطفى ناصف، مجلة فصول العدد 3، أبريل 1981م، القاهرة، مصر، ص45

¹⁷- البيان والتبيين: الجاحظ، ج 65/1.

¹⁸- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 199.

ولا تتحقق متعة النَّص (la jouissance du texte) ولذة القراءة (de la lecture) (le plaisir) بمفهومهما العميق إلا بعد التأمل وإعمال الفكر وكَدِّ الذَّهْن من أجل الفهم، وإذا تحقق للمتلقي ذلك أحسَّ بوقع المتعة الجمالية في نفسه، وهذا ما عبَّر عنه شيخ البلاغة بقوله: "ومن المركز في الطبع إذا نيل بعد الطَّلَب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيّله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النَّفس أجل وأطف، وكانت به أضن وأشغف".¹⁹ ويقول في موضع آخر: "فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعد فانظر في السبب، واستقص في النَّظر".²⁰

أمَّا القراءة بوصفها ممارسة فعلية تساهم في بناء وتشكيل النَّص فحظيت بعناية خاصة في دراسات العرب الأقدمين، كما اهتموا - أيضا - بالتأويل بوصفه فعالية فكرية ينهض بها المتلقي لاكتشاف آليات النَّص وفهم أسراره والوصول إلى دلالاته، وتحديد إحياءاته الفكرية. ومادامت البنية الأدبية بنية مجازية أمكن تصور علاقة الأدب بالتأويل؛ لأن المجاز هو الفضاء الذي يتحرَّك فيه التأويل.²¹

وجاء اهتمام أسلافنا بجماليات التلقي مبنوثة في جملة أحكامهم بقضايا النَّص عبر حقب زمنية مختلفة، من أمثال الجاحظ (ت255هـ) وابن قتيبة (ت276هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذين يشكِّلون تطورا لحركة الفكر النقدي العربي بشكل عام، ويمثِّلون طفرة هائلة فيما يتعلَّق بجماليات التلقي، وبخاصة في رحاب تلقي القرآن الكريم والشعر العربي، اللذين أوجدا نوعين من التلقي هما التلقي الشفاهي والقراءة، أحدهما مرتبط بالآخر، ويتعلَّق الأمر بالسماع والإنصات، والإنشاد والتلاوة،²² والمنتبَّع لتاريخ هذه الطفرة يدرك - لا محالة - أنه من السَّهل إدراك الفوارق البيّنة في طبيعة التَّعامل مع النَّص في الحركة النقديَّة على تعدد الضوابط واختلاف مستويات الإدراك والدُّوق.²³

¹⁹ - أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص 118.

²⁰ - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 68.

²¹ - ينظر استقبال النص عند العرب: د. محمد المبارك، ط. 1999/1م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص 220.

²² - المرجع نفسه ص 284.

²³ - ينظر قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي: محمود عباس عبد الواحد، ط. 1996/1م، دار الفكر

العربي-القاهرة- ص 80.

ويتبين لنا في ضوء ما سبق أنّ النّقد العربي القديم تعامل مع النّص من خلال ثلاث عناصر هامة (النّص - المتلقي - المبدع) ولم يهمل المتلقي (مستمعا أو قارئاً أو مخاطباً) في عملية التفاعل مع قدرات النّص الفنية الكامنة فيه، ولمحاته الجمالية لكشف غوامضه وفهم أسرارهِ.

وأصبح اليوم من مهمة المعاجم العربية لحديثة والمشتغلين في هذا المجال أن ينقلوا التلقي من مفهومه اللّغوي إلى فضاءات جديدة، اكتسبت بعداً نظرياً وجمالياً في الدّراسات النظرية والنقدية المعاصرة كما هو الشأن في المعاجم الألمانية، مراعين في ذلك التمايز الموجود بين طبيعة النّص العربي وطبيعة النّص الغربي، ودلالاتها التّعبيرية، وكذا خصائص اللّغة العربية، كما رأها عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): "استعارة وقعت موقعها، وأصاب غرضها، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان، حتى وصل المعنى إلى القلب، مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن".²⁴

ولعلّ أهم ما يبرّر الاهتمام بنظرية جماليات التلقي بهدف الإفادة منها، هو أنها اكتسبت مفهوماً نظرياً جديداً في نسق الفكر الألماني المعاصر قبل أن يأخذ ذلك في أنساق المعرفة الإنسانية الأخرى، رغم محاولة بعض الدّراسات الفرنسية والأنجلو الأمريكية إيجاد بعض ملامحها.²⁵

وترجع أهمية هذه نظرية التلقي إلى عدم الاكتفاء ببنية الجملة في التحليل اللغوي، بل تتجاوزها إلى بنية النص، واللغة أصلاً هي تواصل بين المتحدث (المبدع) والمستمع (المتلقي) ممّا يؤكد دور المتلقي بوصفه المنتج الثاني للنص.

وإذا كان الكلام في اللغة اليومية يهدف إلى التأثير في المتلقي وتحقيق غاية ما، فإنّ الأمر أشد وضوحاً وقوة في العمل الأدبي، حيث يسعى المنشئ جاهدًا ألاّ يترك شيئاً للصدفة؛ لأن إرادته الواعية تنتقي المفردات وتركبها تركيباً محكماً يميزه عن غيره، ويأتي بعدها المتلقي الذي بدوره يكشف عن البنى الهيكلية العميقة، وكذا البحث عن الوشائج القائمة بينها.

وينضاف إلى ذلك أن الكلام الشفهي قد لا يكتنفه الغموض أو سوء الفهم؛ لأنّ المتكلمين يشتركان بالضرورة في شبكة واحدة من المعرفة والثقافة بحكم اشتراكهما في الوسط المحيطي

²⁴ - أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص 16.

²⁵ - ينظر نظرية التلقي، إشكالات وتطبيقات: أحمد بوحسن، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ندوات ومناظرات رقم 24، سنة

1993م - المغرب - ص 11.

والمكاني، غير أن النص المكتوب يقع بين يدي المتلقي مقطوعاً عن وسطه المكاني وبعيداً عن محيطه الزمني، وهذا يعني أن المنشئ والمتلقي لا يشتركان في شبكة واحدة من المرجعية، فما يحيل إليه المبدع يجهره القارئ، وهذه المسألة لم تغب عن الجاحظ حين قال: "وقالوا اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن، والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره."²⁶ يتبين لنا من خلال هذا القول أن الجاحظ نوه بالنص المكتوب، وأبرز فضله على المشافهة وأصبح بديلاً حضارياً عن الشفاهية التي لم تعد القناة الوحيدة للاتصال.

ووفق هذا التصور فإن المتلقي يعتمد على بنية النص، محللاً العلاقات الداخلية التي أسهمت في نسجه، وهي التي يتم فيها اختراق أفقية المنطق الخطي نحو منطق عمودي نطلب من خلاله إدراك الدلالات المنطوية والمتوارية في ثنايا المكتوب، وهذا لخلق السياق العام الضروري لفهم النص.²⁷

غير أن النص لا يمكن سبر أغواره وتسليط الأضواء على دروبه الملتوية إلا بحضور متلق خبير ومتطور، يدرك جيداً كيف يمكن أن يخلق نوعاً من التضاييف بين ما تسكت عنه اللغة وما تثبته، ويصنع الألفة بينها.

وأصفي قول يؤكد هذا الفهم: "وإنما المعنى أن هناك مشابهاً خفية بدق المسلك إليها؛ فإذا تغلغل ففكر. فأدركها فقد استحققت الفضل، ولذلك يشبه المدقق في المعاني كالعائص على الدر."²⁸

ولن يتأتى له ذلك إلا عن طريق الانسجام والتماسك بين أجزاء النص الواحد، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) إلى هذه المسألة بقوله: "وما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضيلة عمل إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ خاطر إلى ما لا يحتاج إلى غيرهما، ويحتكمان على من زاولهما والطالب لهما في هذا المعنى ما لا يحتكم ما عداهما. ولا يقتضيان ذلك إلا من جهة إيجاد الائتلاف في المختلفات، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التي تنسب إلى الدقة، فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت

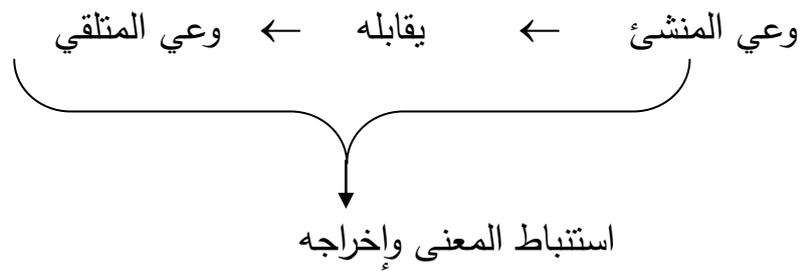
²⁶ -البيان والتبيين : الجاحظ، ج1/58.

²⁷ - ينظر من النص إلى التأويل: محمد ديوان، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 60-61، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس 1989م.

²⁸ - أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص 130.

أجزؤها أشد اختلافا في الشكل والهيئة، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم، والائتلاف أبين، كان شأنها أعجب والحدق لمصورها أوجب.²⁹

ويتضح من كلام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) أنه لا يتحقق الانسجام في النص من انسجام المعاني ووضوحها فحسب، بل من اختلافها وغموضها أيضا، وأن هذا الاختلاف دليل على حدق المنشئ الذي يتصرف في المادة اللغوية والتي تتغير بفعل المجاز والتركيب الذي يخضع لكيفيات عديدة نطق بها العرب، وأن المتلقي يجتهد في إيجاد وحدة وألفة بين المختلفات والمتنافرات، ويمكن تمثيل هذا الفهم بالشكل التالي:



ويعتبر كل نص تواعلا بين المنشئ والمتلقي، والوسيط النوعي بينهما هو اللغة، ويقتضي هذا التواصل منهما (المنشئ والمتلقي) اتفاقا ضمنيا، يهيئ مجالا لنمو النص في ذهن المتلقي، وبالتالي فهم آلياته واكتشاف أسرارهِ والوصول إلى دلالاتهِ وتحديد إبعاءاته الفكرية، وتعد هذه الحقيقة التواصلية أساسا ومنطلقا لمجال واسع من الفهم والتلقي.

إذا كان النص تواعلا بين المبدع والمتلقي، وكانت اللغة هي الوسيط النوعي بينهما، فإن العملية اللغوية كلها تعد حوارا متصلا بين المبدع والنص والمتلقي، وفي ضوء هذا الفهم، فإن اللغة لا تعدو أن تكون نصا مهمته التوصيل والفهم.³⁰

وهذا ما لفت انتباه أعلام مدرسة كونستانس (Constance) إلى ضرورة بلورة مفهوم جديد يحتفي بالعلاقة المتبادلة بين النص والمتلقي، إيماننا بما للقارئ من دور فاعل ومهم في صياغة معنى النص، من خلال الأسئلة العديدة التي يطرحها على النص، الذي بدوره يجيب عنها، وفي هذه الحالة يصبح المتلقي هو الوحيد الذي يتفرد بالحكم على النص.

²⁹ - المصدر السابق، ص 127.

³⁰ - ينظر نحو النص - اتجاه جديد في الدرس النحوي - د. أحمد عفيفي، ط. 1، سنة 2001م، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ص 21.

ويعد عنصر المعنى أحد الركائز الرئيسية التي عول عليها النحويون العرب في تحليل البنية اللسانية، إذ لم يتوقفوا عند حدود الشكل التركيبي لها، بل تعدّوه إلى الإفادة وجعلوها أصلا، ولا يكون الكلام كلاما إلاّ بها، ويعضد هذه الحقيقة عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) بقوله: "ما اللفظ لولا المعنى؟ وهل الكلام إلاّ معناه؟"³¹.

وهو ما جعل النحو العربي يقوم على فكرة الإسناد، أي أنه يبحث في العلاقة التي تربط المسند بالمسند إليه، بخاصة إذا جاء المسند إليه واحدا وتعدد المسند؛ لأنه قد يأتي في عدد من الجمل، وينبغي في هذه الحالة لتحقيق الإفادة البحث عن الوسائل التي تحقق تماسك جمل النص الواحد، "ذلك أن كل جملة تمتلك بعض أشكال التماسك عادة مع الجملة السابقة، مباشرة، من جهة أخرى كل جملة تحتوي-على الأقل- على رابطة واحدة تربطها بما حدث مقدما، وبعض آخر من الجمل يمكن أن يحتوي على رابطة تربطها بما سوف يأتي، لكن هذه نادرة، وليست ضرورية لتعيين النص"،³² وقد وردت الفكرة نفسها في الدلائل: "أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول..."³³.

وهذا يعني أن المتلقي أثناء تواصله مع المبدع فهو يتواصل مع معانيه؛ لأنها هي الأساس الذي ينهض عليه النص، و لم يغب هذا الفهم -أيضا- عن عبد القاهر (ت471هـ) حيث قال: "أن ليس النظم شيئا إلاّ توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم."³⁴

ويدخل المتلقي إلى عالم المبدع الفسيح من خلال ارتباطه بمعاني النص الظاهرة والخفية المستخرجة والمستوحاة من الأوضاع اللغوية المختلفة؛ لأنه لا يرتبط بما ينطق به المبدع ويثبته ويصرح به في النص، وإنما يرتبط بمعاني الكيفيات اللغوية التي اعتمد عليها المبدع في بناء نصه، وهذا هو الذي يجذب المتلقي لقراءة الإبداع وإعمال الفكر فيه وتدبر معانيه؛ "لأنّ المعاني المودعة في الألفاظ لا تتغير على الجملة عما أراده واضع اللغة، وإذا ثبت ذلك ظهر منه أنه لا معنى لقولنا: كثرة المعنى مع قلة اللفظ: غير أن المتكلم يتوصل بدلالة المعنى على المعنى إلى فوائد لو أنه أراد الدلالة عليها باللفظ لاحتاج إلى لفظ كثير."³⁵

³¹ - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص194.

³² - Halliday et Ruqaiya Hasan , Cohesion in English, Longman London, p 35-51

³³ - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص73.

³⁴ - المصدر السابق، ص403.

³⁵ - المصدر نفسه، ص357.

ويمكن تمثّل ذلك في الشكل الآتي:

$$\begin{array}{ccc} \text{المتلقي المثالي (مهياً لفهم الإيحاءات والرموز)} + \text{إمعان النظر وتدبير معاني النحو} + & & \text{الاستعانة بالفهم والعقل} \\ \downarrow & & \downarrow \\ \text{المعنى الكثيف في اللفظ القليل/} & = & \text{النص/ النظم} \\ & & \text{المعاني دون اللفظ} \end{array}$$

ويتحدث عبد القاهر الجرجاني عن إمكانية تلقي معنى كثيف بلفظ قليل، وكأنه يومئ إلى تعدد القراءة واختلاف التلقي من متلق إلى آخر كما هو - اليوم - معروف في نظرية جمالية التلقي المعاصرة التي تبلورت في مدرسة كونستانس (constance) الألمانية. وهي نظرية توفيقية تجمع بين جمالية النص وتلقيه، استناداً إلى تجاوبات المتلقي وردود فعله بوصفه عنصراً فعالاً يربطه بالنص تواصل وتفاعل فني جمالي.